القصة السابعة والثلاثون ـ حياةٌ في اللّاحياة

هديل الخزرجي

"حكمت المحكمةُ بالسجنِ المؤبد على المتهم محمود صالح وذلك بتهمةِ المتاجرة بالأطفالِ وتهريبهم واستغلالهم بطرقٍ شنيعة! رُفعت الجلسة"

لازلتُ أتذكر تلكَ الكلمات بحذافيرها..لازلتُ أتذكر نظرات ولَديّ.. إشارات المحامي أنّه فعلَ مابِوسعه.. مأساة مشاعري وقتها وبكاء أعماقي.. أجلسُ اليوم إلى جوارِ صديقي في زنزانةٍ يُسمع صوت أنينها.. هنا في هذا الخرابِ الشاسع أمكثُ منذ اثني عشر عاماً.. أحاولُ نسيان الحياة والماضي.. وتأبى الذاكرة عبثاً عن كلّ ذلك.. فالحياةُ في كثيرٍ من الأحيانِ تَتجاوزنا في حينِ أننا لا نستطيعُ أبداً تجاوزها كما يجب.. أسندُ رأسي على الجدارِ المرصع بالندوبِ والنتوءات.. أبحثُ في ذاكرتي عن إثمٍ رمى بيَ في غياهبِ السجن ولا أجد.. يقال إنّني تاجرتُ بالأطفال.. أيّ أطفالٍ هؤلاء الذين تاجرتُ وسافرتُ بهم! وأيّ جواز سفرٍ هذا الذي أوردَني قبواً كالجحيم!

أنا في الحقيقةِ لم أكن أملكُ جوازاً أبداً.. فآخرُ جوازٍ امتلكته كانَ قبل سبعة أعوامٍ من سجني.. غابَ في الضياعِ منذُ ذلك الوقت ولم أجد له أثراً. أيّ تهمة هذهِ وأيّ حياةِ أعيشُها!

ألتفتُ إلى صديقي الماكثِ بجانبي.. أنصتُ لصدى تنهيداتهِ المسافرةِ في الفراغ.. وأجولُ بنظري في أنحاءِ الزنزانة.. عالقونَ نحنُ هنا.. نتشاركُ مأساتنا وغبار أحلامنا الموؤودة..

أسمعُ صوت خطواتٍ قادمة.. إنه سجاننا الساديّ!

" اخرجوا الآن وإلّا حرمتم من الطعامِ أيها القتلة" ينتفضُ قلبي لوقعِ آخرِ كلمةٍ نطقها .. فرغم كلّ السنوات التي قضيتها هنا إلّا أنّني إلى هذهِ ّاللحظةِ لم أستطع تجاوزَ هذه الكلمة.. أردّ عليهِ وعيناي مصوّبتان نحو عينيه"لم أكن يوماً قاتلاً ولن أكون"

يضحكُ باستهزاء.. يظنني مجنوناً وفقدت ذاكرتي.. يخرجني بالقوة وبسطارهُ يركلني في كلّ جزء من جسدي..

ما ذنبي أنا؟ أين حقي هنا؟

بريءٌ أمشي بينَ المجرمين.. مظلومٌ أمضي بينَ الظالمين.. وأتمنى أحياناً أن أفقدَ الذاكرةَ كما يقول وأعيش دونَ ذكرى.. دونَ قهرٍ.. دونَ ظلمٍ.. دونَ عجزٍ.. دونَ حياةٍ في اللاحياة..

*****